حزب الله يسرع الخطى نحو افتراق الارادات

رفيق أبي يونس
جريدة النهار ٢٤ كانون الأوّل ٢٠٢١

ما كان يُقال عن حزب الله، ويُعتبرُ اتِّهامًا له، وتجنيًّا عليه، تَحَوّلَ من قِبَلِهِ الى برنامجٍ مُعلنٍ، وان كانت أولَويّاتُه غير مُنتظمة.

لذلك وبكلِّ تحفظٍّ، ومع أبعدِ مدى من الخوف، هل بدأنا نَلحظُ انَّ الحزب يدفعُ باتجاه افتراقِ الاراداتِ عميقًا، ولاول مرَّة في تاريخ بلدنا؟

في التاريخ اللبناني شواهدٌ على أعطابٍ بنيويةٍ في النظام السياسي، منذ نشوء الدولة، ونهائية الكيان، كانت تختمرُ وتنفجرُ مع التحولاتِ الاقليميَّة والدوليَّة، لكنَّها في نهاية كل حقبةٍ، كانت تنتهي مفاعيلها، أمام جدار الحرصِ العربيّ واستنهاضِ المشترك من الإرادات الداخليَّة، وكان الوطن الصغيرُ يعودُ بعدها مَزهوًّا وكأن أحلام ابنائه لم تُمسك بها كوابيسُ الامنِ والجوعِ والتشرد. لم يكن الاعتراض على تجميع لبنان الكبير من بعض أهله ومن مُحيطه، عائقا ثانويًّا انتهى مع الايام الأولى من نشوءِ الكيان اللبناني، بل استمرَّ هذا العائقُ يُجرجر لعقودٍ من الزمن، يصارعُ فكرة القيمةِ الجامعة بين اللبنانيين، الى ان انتصرت عليه هذه الفكرة، وَوُلدت في احشاء هذا الانتصار، روحٌ خاصةٌ بالاجتماع اللبناني، تجاوزت في نموذجها حدود الاعتزاز الداخلي وصولا الى الحاجة العربية والدولية لهذا النموذج في المنطقة.

لقد كانت عثراتُ ما بعد الانتدابِ عابرةً وقابلةً للامتصاص السياسي، وللتسويات الفرعيّة، تُعزّزها الشراكة: في رفض سلطات الانتداب وفي التفاعل مع ما تركه من معالم ثقافية ومدنيّة وتنظيميّة وادارات، وهي معادلة أجمعت عليها النُّخب اللبنانيّة بالرغم من تفاوت الحرارة داخل هذا الاجماع.

دارت دورةُ الاحلاف في خمسينيّات القرنِ الماضي، واحتدَم الصراعُ المُركَّب، جزءٌ منه، متصلٌ بتمسُّك الاستعمار القديم، وجزؤه الثاني متصلٌ بزعامة اميركا الوافدة الى المنطقة، وجزؤه الثالث مرتبطٌ بصعود حركة التحرر العربي ونقطة بدايتها مع الاتحاد السوفياتي. صَمد لبنان امامِ هذا التحدي دون ان يتخلّى الوحدويُّون العرب في لبنان عن دعوتهم ودون ان تَسقطَ زعامة عبد الناصر العربيَّة، كما لم تُوَاجَه أميركا بِفيتنامٍ عربية، واستمر الاوروبيون وعربُ الاعتدال بسياسة الحرص على لبنان. سقطَ التهديدُ للكيان وانتُجت تسويةٌ كانت لصالح تحديث الدولة، انعكست في الاجتماع السياسي اللبناني، نشوءَ قوةٍ لبنانيَّةٍ وطنيَة حاسمة، على حساب معادلة الصراع والتوازن بين الطوائف. كان رمزها الرئيس فؤاد شهاب ونهجه. حصل ذلك لسببين جوهريَّن، الاول لان المُتدخِّل الاقليمي كان عربيًّا، رتَّب طموحاتِه اللبنانيّة وِفقَ ضوابطِ الحرص العربي التي تُتيحه الهويَّة الواحدة، والسبب الثاني هو ان الكيانيِّين اللبنانيِّين، صمدوا في مواقعهم، فجاءت هذه التسوية على قاعدةِ صمودهم.

عبَثت الحربُ الاهلية المُركبَّة في السبعينيّات في المجتمع ومن ثم في الدولة، طالت وطال تقسيمها للبلاد، وبلغ عدد ضحاياها مئات الالاف، لكنها بنهاية المطاف، توقفت وخرج السِّلاح الفلسطيني – وهو سلاح القضية العربية الاولى – من المعادلة، وانتهى اللبنانيون الى تسوية الطائف العادلة، والمُناصفةُ فيها كانت تعني، الحرصَ على التوازن الوطني وعلى التنوُّع، بالرغم من الانقلاب على هذه التسوية فيما بعد، لكنها ابتداءً حصلت، لان اطراف التدخل في تلك الازمة كانوا عربًا تجمعهم مع لبنان الهوية والحرص، ولأن غلبة الحق والحكمة في الداخل كانت لصالح صمود الكيانيين اللبنانيين.

صحيحٌ ان الدورَ السوري استقوى بحاجة اللبنانيين الى الاستقرار، وقبلوا أثمانه، وتأمنَّت النُّخب التي تُغطّي قسريَّة هذا الاستقرار، على حساب الحياة السياسية وعلى حساب الحريات، لكن هذا الجَور لم يبلغ حدود تهديد الكيان والدولة، ولم تكن المقبوليّة المحدودة التي فرضها السقف السوري والنظام الامني المشترك، سببا لانتفاء امكانية الانتفاض على هذا الجَور.

ان المرورَ بجانب هذه الازمات التاريخيّة التي اخترقت شبّاك التكوين اللبناني، السياسي والاجتماعي، وحملت تهديدًا للوحدة الداخليّة، لم يرافقها في لحظة ذُروتها، افتراقُ الاراداتِ التي تجتاحُ الوجدانَ اللبنانيَّ في الازمة الوطنية الراهنة، على الرَّغم من ان النُّخب تحاذر الاعتراف بذلك وتختبئ خلف رحلة الاستقرار الهش.

الازمة الوطنية الراهنة تتجاوز تأثيرات الاعطاب البنيوية وتُهدِّد المصير الوطني العام. لان الكيانييّن اللبنانيّين غادروا دورهم ومواقعهم الاصليّة والتأسيسيّة، ولان العرب تعبوا من الشريك الايراني في لبنان والمنطقة، ونرجو ان يكون ذلك الى حين.

لقد استوطن ولم يخرج من الذاكرة اللبنانية، ما قاله القائد الفلسطيني (أبو اياد) انَّ تحريرَ فلسطين يَمرُّ في جونيه. جاء كلام الشيخ نعيم قاسم قبل اسبوعين، من نفس العيارِ من حيث التشاوف بقوة السلاح.

اما ان تكونوا معنا تِبعًا (لولايتنا عليكم)، او فتِّشوا عن حلٍّ آخر.

هذا الكلام قالوه قادة حزب الله وعلى رأسهم السيد حسن نصرالله، مرارًا وبوضوحٍ أكثر في المراحل التأسيسيّة لحزبهم. فسَّر الطرفُ الاخر في اتفاق مار مخائيل انَّ مثلَ هذا الكلام تعبويٌّ استنهاضيٌّ، لا يُلزِمُ اصحابه ولا يلزمنا، لكن بعد أن افصح عنه نائب الامين العام للحزب، في لحظةِ الانهيارِ المفتوحِ على أسئلةٍ، حول تقريرِ المصير ومُستقبلِ الدولة والوحدة الداخليَّة، لا بدَّ من اعتباره، كلامًا يُشكِّلُ جوهرَ الوعي والثقافة، عند قيادة الحزب وقواعدِه، يُضاف اليه برنامجٌ تنفيذيٌّ، بدايتُه الامساك التدريجي بمختلف السلطاتِ وشيطنة وتخوين بقاياها المُتمرِّدة، كالسلطة القضائيَّة.

بلاوى الدمِ والعنفِ في تاريخ لبنان، لم تُقفل بابَ التسويات بين اللبنانيّين، لان العربَ كانوا طرفاً الازمات والتسويات. نحن الان في صُلب أزمةٍ لا تنطبقُ عليها عِبَرَ ودروسِ وقوى الماضي. يُمسكها طرفٌ واحدٌ، يداه أشبه بمَلزمةٍ، لا يربُطه بلبنانَ، الا خيط الثأرِ التاريخيّ من العرب. عناصرُ تفوُّقِه، العقيدةُ الدينيَّةُ والقوةُ المُجرَّبة في

ميادين دوره، طموحُه على مدى انتشارِ أذرعِه، تَرَك للبنانيّين خيارَيْن: إمّا القبول بالاختناق او السَّعي لترجمة افتراق الارادات معه، ونقطة البداية في هذا الافتراق، هي رفضُ النموذج الايراني، الذي لم يكن لِيُقبل حتى ولو كان عربيًّا، فكيف يمكن ألّا يقاوم وهو فارسيٌّ ومذهبيٌّ.

في الاستقرار: وهو حاجةٌ رافقت نشوءَ الدولة والكيان، وإنَّ أوضَحَ ما قدَّمه المشروع الايراني في هذا المجال، هو تدمير الدول الوطنيَّة في المَشرق العربي وصولاً الى ابعد من هذا المشرق، ومخاطبة مجتمعات هذه الدول، بلغة التخوين للأكثريّات وللاقليّات معا، تمهيدًا للتغيير الديموغرافي حيث امكن. كل ذلك تحت شعار تحريركامل التراب الفلسطيني، والاستثمار في دماء ابناء غزة والقدس، والقبول بواقع الحدود الآمنة، واسقاط النموذج اللبناني التعددي، بصفته النقيض والحرب على دولة التمييز العنصري.

في الاجتماع: تعميم السلوكيات التي تُكرِّس احتلال اهل ولاية الفقيه لمجتمعٍ شديد التنوع، كأن يقبل اللبنانيون، بعد ان كان من يريد ان يَستاحَ في اقليم التفاح، ويأكل في مطاعمه، اصبح ممنوعًا عليه ممارسة فنون الرقص في ساحل المتن الجنوبي (لان البهجة باتت زنى روحيًّا يجب ان تحارب.)

في الحريَّات: تنصيبُ قياداتٍ سياسية تُمارس بلا نقاشٍ، الفصلَ القاطعَ بين الخير والشرّ، في الحياة الوطنيّة اللبنانيّة، والاعتراض عليها، يَرقى لمرتبة الادانة والخيانة، ويَغدو اساءةً الى الرموز الدينيّة واحيانا الالهيّة، في بلدٍ يتنفَّس حريةَ الانتماء والافصاح والتعبير والكتابة، أصبحت نُخَبه تعيش هواجسَ الاغتيال السياسيّ، كما وتعرَّضت انتفاضته الشعبية الأولى والأقوى في تاريخه،على النظام والمنظومة، الى تصفية في الميدان وفي السياسة والامن وكان حزب الله (الأوْلى بهذا المعروف الوطني).

في الاقتصاد: إنشاءُ اقتصادٍ موازٍ للاقتصاد الوطني، وصولاً الى الاستيراد والتصدير. وبعد ان كان يتمُّ ذلك خلسةً او تهريبًا باتَ مفخرةً تُضاعفُ اسباب الانتصار على الدولة.

لقد كان الرهان فيما يذهب اليه حزب الله، ان هنالك حلفاء واصدقاء للحزب، قد يدركون ان دورهم يجب الا يقتصر على تبني مشروع المقاومة وهو مشروع اوسع من حزب الله واصدقائه وحلفائه، بل يجب عليهم ان يضطلعوا طيلة السنوات الماضية بالسعي الى التوفيق بين المقاومة كقوة دفاع عن لبنان، وبين قيام الدولة وحماية المجتمع من الانقسام. لكنهم كبارا وصغارًا لم يستطيعوا ذلك وبعضهم لم يرغب فيه ولم يسعَ اليه ولا الى ثقافة الحوار بدل التمرس في السجال، وثقافة الاشتباك من موقع التحالف مع حزب الله. كما لم يتعظ مثل هؤلاء الحلفاء، الى ان الانتماء كجالية الى المشاريع الاقليمية، لم يكن مقبولا عربيا، فكيف يمكن ان يكون مقبولا فارسيا. لا بد في هذا السياق، من التحية الى من خالف هذا الطِّراز من الحلفاء، نائب صيدا، اسامة سعد، الذي حمى بتميّزه شراكة الدم في تحرير الجنوب وتمسَّك بعروبة مدينته ولبنانية تياره الشعبي.

اذا كان الخروج عن المفهوم الخاص (والضيّق) للوطنيّة اللبنانيّة، حقٌّ لايّ حزبٍ او مجموعةٍ، فليس من حقها ان تدفع الاغلبية من اللبنانيين لقبول خياراتها بقوة السلاح او حتى بدونه.